

هَزَلٌ . . . !

للأستاذ محمود محمد شاكر

يخيل إلى أن بين قلبي والليل صبايةً أو هوًى قديماً . فطالما رأيتني أعقد الرأي والعزمَ نهائياً على شيء أجمل الكتابة له قديماً إذا جنَّ الليلُ ، فما أكاد أجملُ القلم وأبدأ حتى أرى القلم ينفض على رأبي وعزى وعضى إلى حيث شاء كما شاء ، فما يُبقى من آية النهار البصرة شيئاً إلا طمسه أو أزاله أو نكس من معارفه . وما أظنُّ إلا أن كل كاتب قد ابتلى من قلمه بمثل النبي ابتليت به أو بشيء يقاربه . ومن أعسر شيء ألقاه من هذا القلم أنى ربما بدأت الكتابة ، فإذا هو مطوَّعٌ حيث ماض لا يتوقف ، وإذا كلمةٌ مرسلَةٌ إليه ليقيدها ، فإذا هو كالفرس الحرون قد ركب رأسه وأبى إياه ، فلا أزال أترقبُ به وأستعجبه وأديره بين أناملى ليلين ما استمصى من طباعه ، ولكنه يأبى إلا للجاجة وعناداً ، ثم ينزع إلى وجهه فيردى أردتُ ، وإذا أنا مضطر أن أعود من حيث بدأ هو لا من حيث أردتُ أنا أن أبدأ ، وعندئذٍ يعضى على هواه وعلى ما خيلت . وقد عرفت ذلك من عاداته قديماً ، فإيكاد يفعل ذلك حتى أثوب به إلى ورقة أخرى فأبدأ الكتابة من حيث أبدأ ، وأمرى لله .

أفتراني أخطئ إذا أنا زعمت أن لقلم الكاتب شخصية مستقلة بل منفصلة تكاد أحياناً تغلب حامله على رأيه وعلى تقديره وعلى مزاجه ؟ أم الإنسان المفكر صاحب العقل شيء آخر غير الإنسان الكاتب حامل القلم ؟ فهو حين يفكر يُعطى أفكاره من الحرية والسعة والحاسة ما يجعلها أقدر على التصرف في وجوه الرأي وشمايه ونواحيه ، فإذا حمل القلم لميل عليه بعض أفكاره ، استقل قلمه بالفكرة بعد الفكرة يزنها ويقدرها على قدر عقله هو لا على عقل حامله ، فربما عرض له أن ينبذ منها أو يتنقصها أو يتجافى عن طريقها فيسد عليها المسالك ويضرب عليها بالأسداد ، ثم يشرع إلى وجهه غير الذي يُراد له ؟ أم الإنسان إذا فكر ثم أراد أن يكتب وحمل القلم سار هو نفسه شخصاً آخر غير الإنسان

المفكر بنير قلم محمول ؟ كل ذلك ممكن ، ولكنه على كل حال متعبةٌ وشقاء لحامل القلم ما بعده شقاء ولا تعب .

وأعرف رجلاً من أسدقائي الكتاب ، إذا حمل القلم وكتب كلمات ألقى قلمه ضجراً يائساً متمللاً من عُسر المدخل الذي دخل به على ما أراد ، فإذا عاد عاد القلم إلى جاحه وتمذره ، ولا يزال كذلك مرة بعد مرة حتى يرى قلمه قد رضى وأطاع ومضى إلى آخر حرف في المقالة غير متوقف ولا متلثم ، وقد قال لى : إنه ربما مضت الأيام على ذلك الجحان ، مع أنه يعلم مستيقناً أن الفكرة كانت قد اختمرت وامتوت وتهيات له من قبل أن يحمل القلم بأيام ، وأنه كان يظن أنه لن يحمل قلمه حتى يراه قد انسب انسياً لا يعوقه شيء ، فإذا فرغ من كتابة ما أراد لم يجد أنه زاد قليلاً ولا كثيراً عما كان فكثُر فيه وعزم على كتابته . فأى سر هذا الذى ينطوى عليه القلم حتى يكون هو المتصرف الذى لا يرد لما أرادُه أمر ؟ قد تقول : إنه الحالة النفسية

يكون عليها الكاتب ؟ وقد تقول : إنه الجو الذى تعيش الكلمات التى يبتنى استنفارها من مكانها ؟ وقد تقول أشياء كثيرة من هذا وأمثاله ، ولكن يبقى أنك لا تكاد تميز بعد الكتابة شيئاً من الاختلاف عما كنت قد فكرت فيه وأدرته في نفسك وعرفت أنه قد أطاع لك ، فمن أين جاء هذا التوقف العجيب الذى تمتاده بعض الأقلام ؟

وأنا قد جربت نفسى ، فראيتنى إذا أردت أن أكتب أحياناً شعراً يدور في قلبي ويلج على خاطري ، فأمسكت أى الأقلام وقمت عليه يدي ، فإذا هو عصيٌ عنيدٌ لا تلين له سنٌ — أو قناتٌ على ما يقولون — فإذا ألقىته وحملتُ القلم الذى اعتدتُ زماناً أن أكتب به الشعر ، أو الذى اعتاد هو أن يكتب لى الشعر ، انطلق على سجيته طيماً رفيقاً سهل المقادة حسن الهدى إلى قبلة الشعر . فأحبُّ الآراء إلى أن أجمل للقلم شخصية منفصلة تعين الكاتب أو تمنده ، فذلك أشبه بالسلطان المريض العظيم الذى فرضته الأقلام على الحياة ، والذى لولاه لماش الإنسان ومات وكأنه لم يوجد قط .

كنتُ أردتُ أن أكتب شيئاً عن المتنبي وعن حكته

وبصره بالحياة والناس وبب يتلج في القلوب على اختلافها ،
وذلك لحديث جرى بيني وبين أحد ضيوف مصر من أهل العراق .
وأردت أن أقارن بين ما يسمونه شعر الحكمة ، وبين حكمة المتنبي
في شعره ، وأين وقع منه سائر الشعراء ؛ فساكدت أبداً حتى
عرضت لي أبيات المتنبي التي يقول فيها :

إنما أنفسُ الأئسِ سباعٌ يتفارسنَ جبهةً واغتيلاً
من أطاق التماسَ شيءٍ غلاباً واغتصاباً لم يلتمسه سؤالاً
كل غادرٍ لحاجةٍ يتمنى أن يكون الغضنفرُ الرثبلاً
وذكرت عندئذ ذلك البيت الذي أحيتته أم كلثوم حين غنت
في شعر شوقي :

وما نيل المطالب بالتمنى ولكن تؤخذ الدنيا غلاباً
وما استعصى على قومٍ مثالٌ إذا الإقدام كان لهم ركاباً
وأردت أن أعرض للفرق بين القولين ، وبين العبارتين ، وبين
القوتين ، وبين البيانين . فأى دقة وأى هداية كانت لهذا الرجل
الذي لو احتلت على بعض ألفاظه أن تجد لها بديلاً في كلامه
لأفدت معنى البيت وقوته وعبارته وبيانه ! نخذ مثلاً لفظ
« الأئس » ، وتخبر ما شئت من حروف الالة وضعه حيث وضع
المتنبي لفظه ، واقرأ وانظر وتدبر ، هل يليق أو يسوغ أو يلين
أو يستقر في مكانه من البيت ؟ ضع مكانه « الإئس » أو « البشر »
أو « الناس » أو « الأنام » أو ما شئت ، سواء استقام الوزن
أو لم يستقم ، نجد الفرق بين الاختيارين عظيماً واسماً . فهو قد
اختار اللفظ والبناء الذي يدل دلالة على المؤانسة والرفقة والتلطف
وإظهار المودة والظرف وحلاوة الشائل ولين الطباع ، ليظهر لك
أنها تخفى تحت هذا كله طباعاً وحشية ضارية مترققة حيناً وباعية
أحياناً ، فهد للصورة التي أرادها باللفظ الذي لا يستغنى عنه في
دقة الصورة وحسن بيانها . فأين هذا من ضعف شوقي الذي
لم يزد على أن جمع كلمات رُصّ بعضها إلى بعض لا حاصل لها ولا
خير فيها . وما قيمة ذكر الركاب ، مع الإقدام والاستعصاء
والمثال ؟ وأما البيت الأول « وما نيل المطالب » ، فهو كلام عامي
دائر على الألسنة ، ولا فضل فيه ، بل هو أشبه بقرير ضعيف
عن معنى ليس بشيء .

وعندئذ عرض لي أنا أن هذا الفعل من شوقي هزلٌ للمعاني ،

وهزل في طلابها ، وهزل في إدراكها على وجهها . وإذا هذا
القلم يسألني - أو يأبى إلا أن يذكرني - بأن الهزل الذي
كان فيه شوق خير من كل هذا الهزل الذي أصبحنا وأمسينا
نميش فيه . فالدنيا تجد من حولنا ونحن نهزل ، ولا نكاد نجد
من كبار رجالنا أحداً قد نهض به جدُّه وجِدُّه في ناحية إلا
وقد سقط به هزله في ناحية أخرى . وأن أشدَّ البلاء من مثل
هذا الرجل أن يُلبس عليه حتى يظن أن هذا الهزل هو أجدُّ
الجدِّ ، لأنه ظن أنه ما بلغ إلا بجدِّ كان فيه طبيعة مفروزة فظن
حتى صار ظنه حقاً عنده .

ولسنا نحب أن نطمئن على الرجال بالحن فضلاً عن الباطل ،
ولكن بلادنا في كل مكان من مصر إلى الشام إلى لبنان إلى
فلسطين إلى العراق إلى بلاد الهند إلى أندونيسيا إلى الجزائر
وتونس ومراكش ؛ قد أحست شعوبها أن ساعة الحيد قد
آذنت ودنت ، وأنها ساعة إذا أفلتت فلي تعود إلا بلاء وعناء
وشقاء . ومع ذلك فالرجال والعلماء وأصحاب الرأي أيضاً ، وهو
أشدُّ البلاء ، قد ركَّبوا في رؤوسهم أذنًا من طين وأذنًا من
عجين - كما يقول المثل العامي - فإسمعون حسيس النار التي
تشتعل في صدور أبناء هذا الشرق إلا كحشرة الميت ، فهم
يماجون أمورنا على صورة من اليأس والمال ، كأنما يرجون
الظفر بأي شيء كان ، ماداموا يحبون أنهم إذا دفعوا لأعين
الناس هذا الذي ظفروا به ، وقالوا لهم لقد ظفروا لكم بخير
ما ترجون ، صدقهم الناس وصفقوا لهم ومشوا في ركاب مجدهم ،
وجأروا إلى الله بالشكر على ما أنعم على أيديهم . فهم ليسوا
طلاب حق منافع بل طلاب مجدٍ كاذب ، يظنون أنهم يمتحنون
به أعمالهم الصالحات .

فأى هزل كهزل رجال الهند مثلاً ، وهم الذين عركوا
ساسة الإنجليز مئة وخمسين عاماً أو تزيد ، ولقوا من خداعهم
وكذبهم وتزويرهم وقسوتهم وشناعة أحقادهم ما لا ينسى مواجعه
إلا غرَّ غافل ؟ وإذا الذين كانوا بالأمس نار الثورة وخرابها
قد رضوا أن يستمتعوا بالحكم ويصيروا وزراء في شعب مستعبد
تدوسه أقدام الفاسيين . وهو لا يزال يسمع منهم أن الهند جزء
لا يتجزأ من هذه الإمبراطورية التي لا تنيب الشمس عن

ولا عن مصر . وفيهم يتفاوضون ؟ ألا إن الحق بين والنصب بين ، ققولوا لأصحابكم الذين يتفاوضون إن مصر لا تريد إلا تحقيق هذه الكلمات : « الجلاء ووحدة وادي النيل » . إننا نريد معمرنا وسوداننا ، إننا لا نريد منكم إلا أن ندعونا وشأننا ، اخرجوا من بلادنا ، فارقونا . قولوا ذلك وعلّموا الشعوب بإيمانكم وإصراركم أن تكون أشد إصراراً وإيماناً وأوفى شجاعة وأقدر صبراً ، وإلا فسوف يأتي يوم يجد فيه الشعب جدّه ، فإذا الذي ظننتم أنه مجد لكم هو أبغض شيء إلى الشعب ، واعلموا أنه لا مجد إلا بفعل ، والهزل مخبئة للفعل ، فجدوا إذن وعودوا إلى الإنجليز من حيث بدأوا بكم .

إن هذا الذي يحدث في الهند وفي مصر حسرة للنفوس تطوى تحتها أسوأ مغبة ، فهل من رجال ينفذون بلادهم من شرّ هذه الموبقة المستطيرة ؟ إن الحكام والمفاوضين طلاب المجد لن يذوقوا لذة المجد حتى يكون الشعب هو الذي يذوق لهم طعمه ، فإذا استكرهه ، فلا تخدعهم الحلاوة التي يجذونها في أنسهم ، فإنها مرارة الدهر وذلل الأبد . ورحم الله المتنبئ :
من أطاق التماس شيء غلاباً واعتصاماً لم يلتصمه سؤالاً
فعلام المفاوضة ، وفيهم السعي إلى الحكم ؟

محمد محمد شاكر

أملأها - فأى هزل أسخف وأبعد في الغفلة والسذاجة وسوء التقدير من هذا الحكم ؟ وفيهم يدلس هؤلاء على إخوانهم الذين لا يعرفون كما يعرفون من خبايا النيات البريطانية التي تدس لهم السم في الدسم ؟ أو لم تكفهم العبرة التي لا تزال أختهم مصر ترفل في أغلالها منذ سنة ١٩٢٤ إلى يوم الناس هذا ، حين قيل رجال الثورة أن يكونوا للناس حكاماً تحت ظلال النصب والاحتلال ؟

وأى هزل أشد على النفس الشاعرة مرارة وغضاضة من رجال قاموا من غفلتهم ومنامهم يسمعون الشعب كله ينادي « الجلاء ووحدة وادي النيل » ، أى ينادي بالحق الطبيعي الذي لا يحتاج إلى تفسير ولا بيان ولا شروط ، والذي ظلت مصر البصيرة تهمس به أحياناً وتصرخ به أحياناً أخرى منذ سنة ١٨٨٢ ، وإذا هم يطالبون بالذي يطالب به الشعب ، ولكنهم لا يلبثون إلا قليلاً حتى يرضوا لأنفسهم أن يدخلوا من باب المفاوضة مع البريطانيين ، فلما دخلوا داروا فيها كما تدور بهم ، وهم كانوا أولى الناس بأن يعرفوا بعد طول التجربة ما عرفه الشاب مصطفى كامل إذ قال لهم : « لا مفاوضة إلا بعد الجلاء » ، لأنه أدرك أن المفاوضة معناها أن ينزل الضعيف عن أكثر حقه للقوى الطائش الباغى ، فما ظنك به وهو ليس بقوى طائش باغ وحسب ، بل أيضاً منصور مظفر قد خرج من الحرب وهو يظن أن الدنيا له ، وأنه وإن كان ضعيفاً بين الأقوياء ، إلا أنه هو الجبار العظيم بين الضعفاء ؟ وأنه سوف ينال من الأقوياء والضعفاء بمحيطته وسياسته ما لا ينال بالهز ، فذلك أثر طريق المفاوضة ، واتخذ أعوانه لينيموا الشعب إليها حتى يهدأ ويسكن ويظن أنه بالغ ما يريد ؛ لأن الدنيا تغيرت ، ولأن العالم في حاجة إلى نظام جديد ليس بينه وبين القديم شبه . وظلت المفاوضات أشهراً وهي تسير قتيلاً على عكازين كأنها هي الأخرى من ذوى العاهات الذين خلفتهم الحرب عرجاً وظلماً أو شراً من ذلك . فأى هزل هذا ؟

أى هزل هذا الذي يؤمن به رجال يحالهم الناس من أصحاب العقل والحكمة وسداد الرأي في المضلات ؟ وماذا فعلوا منذ بدأوا إلا أن قدّم الإنجليز مشروعاً وقدموا مشروعاً ؟ ولا يزالون على ذلك إلى يومنا هذا . فهم إنما يتقارضون كلاماً لا يبنى عنهم

فريباً نصر « مطبعة الرسالة » ، كتاب :

اللغات في القرآن

كتاب طريف نادر

يتضمن لغات خمسين قبيلة

من القبائل العربية وجدت في القرآن

لا توجد في مصدر آخر . . .

رواية عبدالله بن الحسين بن حسن بن المقرئ المتوفى ٣٨٦ هـ

حققه وصححه

صلاح الدين المنجد